الآراء السقيمة لانه لم يتربّ تربية صحيحة لفهم هذه الاشياء فلا يمكنه ان يدركها . قال بعض العلماء اذا وجد انسان بين مائة انسان يعرف ان يفكر فانه لا يوجد انسان بين الف انسان يعرف ان يرى ». الجمال محيط بالانسان فى كل مكان والكون كله مملوء بانواعه . فاذا امكن الانسان ان يدرك ما يحيط به فهم الجمال . واذا امكنه أن يُبرِّز أو يعبر عن ذلك بشكل جميل او بعبارات بليغة كان فنيا بارعا . فان فهم الجمال لا يدعو الى كد القرائح بل الى التأمل فى الوجود وهذا هو سر الفنون الجميلة . وسر النبوغ

احمد ضيف

نقد كتاب تاريخ مصر

فى عهد الخديوى اسماعيل

تأليف حضرة الياس افندى الأيوبى

ان اللجنة العلمية التى تكونت لفحص الكتب التى قدمت للمسابقة لم تحسن اداء مهمتها فظهر الكتاب الفائز وفيه ما يدعو الى الانتقاد الشديد . وان شئت أن تحكم على مبلغ اهتمام اللجنة وتقديرها لواجبها فاقرأ رأيها المنشور فى مقدمة الكتاب .

قدمت اللجنة تقريرها عن الكتاب فى خمسة اسطر اعلنت

فيها « ابعاد » كتاب الاستاذ الايوبي فقالت « انه مجلدان مجموع صفحاتهما ١٠٨٤ صفحة وفي كل صفحة ٢٠ سطرا كتابة » ثم قالت « ان اقسام المؤلف معقولة وعملية وقص الحوادث مضبوط والانشاء عصري وانيق » ولم تتعرض بكلمة واحدة عن طريقة الكتابة ومادتها ومبلغ صحتها ولياقتها وقيمتها من الوجهة العلمية البحتة . فكأن اللجنة بنت حكمها على اعتبارين عتيقين منبوذين في نظر المؤرخين الحديثين وهما كثرة المادة وقص الحوادث

ولا يتسرب الى ذهن القارىء اننا نريد الطعن في كتاب الاستاذ الايوبي مدفوعين بعامل المنافسة والغيرة لاننا عجزنا عن كسب الجائزة الاولى ولم نظفر من المباراة الا بجائزة ثانوية فاننا على كل حال محترمون رأي اللجنة قائمون بحكم الرأي العام

ولكننا نريد فيما نكتبه ان نشير الى عيوب واغلاط في الكتاب نرى لزوم اصلاحها لاننا نعتبر وجودها حاطاً بسمعة علم التاريخ بوجه عام .

نريد ان نبين ان مهمة المؤرخ الحديث تختلف عن مهمة المؤرخ في القرون الوسطى اختلافا بينا فبينما الاول يجمع الحقائق لتمحيصها وتحليلها تحليلا منطقيا دقيقا وربطها بعضها ببعض كان الثاني لا يهتم الا بجمعها فحسب . وبينما الاول يكتب وامامه وحدة عامة متماسكة سائدة في اجزاء كتابه ظاهرة في طريقته ونفسيته واسلوبه كان الثاني

يسجل الاخبار حسب وقوعها ولا رابطة تربط بينها غير الرابطة الزمنية.

تريد ان نقول انه اذا كتبنا التاريخ حسب الطريقة القصصية التفصيلية فمن المؤكد انه يأتي وقت يكون فيه التاريخ حملا لا قبل لاحد بحمله او حفظه او استيعابه اذ يصبح عبارة عن مجموعة حوادث وحكايات متدرسة لا قيمة لها بخلاف الطريقة النقدية العلمية الحديثة التي لا تهتم بالتفصيلات بمقدار اهتمامها بتحليل المسائل العامة وربط الاسباب بالنتائج فتجعل من التاريخ علما مفهوما شيئا تظهر فيه مواهب المؤرخ وشخصيته وقوة ابتكاره . اما كتاب الايوبي فلم يوف شرطا واحدا من شروط الكتابة الحديثة فالكتاب في الحقيقة عبارة عن مجموعة طيبة من الاخبار والحكايات والمعلومات المجموعة جمعا حرفيا من مصادر اكثرها ثانوي اوربي عربه المؤلف تعريبا تجاريا ليست عليه مسحة علمية قط وعبثا يحاول الباحث ان يعثر في كتابه على رأي جديد او استنتاج مبتكر ، فكل ما في الكتاب منقول رأسا بتصرف قليل او من غير تصرف بالمرة . وبعضه منقول من غير تفكير . مثال ذلك حكاية نقلها المؤلف عن رأي اللورد بالمرستون في اهمية مصر بالنسبة لانجلترا (انظر ج ٢ ص ٤٩٩) وكان قد ذكر الحكاية نفسها في الجزء الاول ص ٣٤٠

١ - اما تقسيم الكتاب الذي تقول عنه اللجنة انه معقول وعلمي فلم ار شيئا ادعى للاستغراب من تقسيم كتاب تاريخي الى اجزاء وهذه الى ابواب ثم الابواب الى فصول كل منها مستقل تماما عما حوله من

الموضوعات فالباب الخامس مثلا من الجزء الثالث عن « العقبات التى اعترضت سبيل نفاذ الخطة » والفصل الاول من هذا الباب عن « الكوارث الطبيعية وهى حريق الحمزاوى ووباء الماشية والخيل والكوليرا ونادرة لسعيد (!) ثم طغيان النيل وعجزه والغلاء والمجاعات ثم ذكر فى الفصل الثانى الحملات المصرية المرسلة مساعدة لتركيا « ككوارث غير طبيعية » ولا ادرى كيف تكون الحملات المرسلة من مصر اظهارا لقوتها او كيف يكون حريق الحمزاوى مثلا من العقبات التى اعترضت سبيل نفاذ الخطة

٢ — اما اسلوب الكتاب فظاهر فيه التكلف والتنميق وغرابة التركيب وغياب ذلك التيار الفكرى الذى ينبعث عن روح المؤلف فيكسب الكتابة حياة معنوية نامية تجمع بين نفسى القارىء والمؤلف

لقد راعى المؤلف الاصول الافرنجية التى نقل عنها فظهرت فى الكتاب عبارات والفاظ غير مألوفة بالمرة فيقول مثلا « انشأت الشركة خدمة اسبوعية » يريد سياحات . ويقول عن سعيد باشا انه لمصر « كومدها وهنريها الثامن والثالث معا » ص ١٦٤ ج ٢ . ويقول (انظر الى تهكم القدر وعبثها بالموضوعات البشرية) ص ٢٣٠ ج ٢ . ويقول (بين الكابيتول والصخرة التربيئية) عنوانا لفصل من غير تفسير . ويقول عن ابراهيم باشا (ولم يكن فى استطاعة غير المنصور فى تزيب) بدل نصيبين (تتميم العمل التيتانى) ص ١٤٣ ج ١ . ويقول (ضمان الاعمار) بدل تأمين الارواح و (عهد ديوكلسيان (بدل (دقلديانوس)

ويقول (الشركة الجغرافية الملكية) ص ١٢٣ ج ٢ ويقول عن الامبراطورة اوجيني (نزلت ترد له زيارته وامتطت امازونة جديدة صهوة جواد مطهم) ص ٤٣٥ ج ١ يريد أن يقول كأنها من النساء الحربيات فى الازمنة القديمة وهو المقصود من كلمة (امازونة) ويقول عن اسماعيل باسان جماعة من منشستر (هذا رجل أقطع للشغل يوجد على غير شاطىء الارول) ص ٥٣٣ ج ٢ . ويقول عنه أيضا (انه كان أرضا جيدة لاتحتاج الا الى فلاحة حكيمة وبذرة طيبة ص) (٥٣٣ ج ٠) ويقول عنه أيضا (انه كان يخرج لابسا اسطمبولية بسيطة وطربوشا أحمر)ص ٥٣٢ ج ٢

اما الخلط فى مواد الكتاب وعدم تجانس اجزائه فاظهر صفات الكتاب الذى جاء كشكولا لعدة حوادث جلها خارج عن الموضوع بالكلية وانك لتجد فيه من الاطناب والتشويق فى سرد بعض الحكايات مايغنى عن مطالعة القصص الروائية فى مثل كتاب الف ليله (راجع حكاية ضابط القاهرة والتركى زوج المرأة الحسناء) ص ٢٧٣ الى ص ٢٨٩ ج ١ وتجد فى الكتاب تاريخا مفصلا عن على مبارك باشا مثلا فى نحو ثلاثين صفحة مأخوذة من تاريخ حياته بنفسه (وحكاية أفراح الانجال) (وصديق باشا المفتش وجواريه) وحكاية (ناظر محطة طنطا) و (خنزير ماريت) (وحكاية الشيخ على اللبيّ ووضع ابريق الماء فى بيت الراحة) كل هذه حكايات تقع فى عشرات من الصحف وبعضها حكايات غير أدبية لايليق وجودها فى كتاب تاريخى صحيح . ويخيل

الىّ ان المؤلف تنبأ بأن الجوائز ستوزع حسب ضخامة المادة فلم يدخر وسعا فى حشر الموضوعات حشرا من غير تمييز

وهنا أجدنى مضطرا بكل أسف الى تعداد بعض العبارات الخارجة عن الحد اللائق فى الكتابة العلمية وخاصة فى كتاب تاريخى ذى منزلة أقل مافيها أنها شبه رسمية وانى مندهش جد الاندهاش كيف تركت مثل هذه العبارات التى سأسرد بعضها من غير حذف أو تنقيح على الرغم من كثرة الايدى التى تناولت الكتاب ! تصور وجود ما يأتى فى متن الكتاب وكلها سقطات لا تحتاج الى تعليق

وكانت الزهور والطيور أحب المخلوقات الى قلب عبد العزيز (السلطان) وأعز ماترتاح اليه نفسه بعد ربات الخدور ص ٤٦ ج ١

« ويبديان لبعضهما من مظاهر الغرام ما أشعل نيران الشهوة فى ظهور الشبان من أولئك الرجال » ص ٢٧٧ ج ١ وقال عن أبناء الشراكسة أو الاتراك (وبما ان معظمهم بحكم بيئتهم كانوا شديدى الميل الى . . .) ص ٣٠ ج ٢

وقال عن صديق باشا المفتش (. . . لمن كان مثله بن فلاح وصعلوك الاصل طالما مُدّ أجداده بل أبوه ذاته تحت السكرباج وازرقت رجلاه ودفقت دما من تعاقب السياط عليها » ص ٣٦٢ ج ٢ وقال عنه أيضا ناقلا « ثم مات فى النهاية موت كلب مسعور) ص ٤٠٧ ج ٢

ويقول فى وصف جوارى المفتش (ما بين حورية شركسية بيضاء وخمرية مسكرة وسمراء غانجة وحشية شعرية ذات أعين بقرية

وبرنية موشومة ذات نهود سفرجلية وسودانية خماء متقدة الدم الهائج » ص ٤١٩ ج ٢

ويقول عن اعيادفتح القناة «ان الشيوخ فى عهدنا هذا لايزالون يتحدثون بها ويعدونها مزرية بذات ابتهاجات الجنة المعدة للصالحين » ص ٤١٩ ج ١

ويقول في وصف المصريين وحياتهم اليومية «ثم بتكيفون والتكيف عبارة عن غيبوبة المرء عن العالم المحسوس ليعيش برهة غير قصيرة فى عالم الاحلام والاماني معيشة من يرى هذه الاماني والاحلام حقائق ويستمرىء لذتها استمراء عتيقا » ص ٢٨٩ ج ١

ومن أفكه ماقرأناه اختياره عنوانا لفصل قناة السويس المثل العامى « سكتنا له دخل بحماره » ص ٣٢٥ ج ١

الامضا

رفعت